ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد : 06، العدد : 02 (2021) ص : 44 – 57

المنفى بعيون فلسطينية : مفهوم المنفى في فكر إدوارد سعيد

Exile through Palestinian eyes: The concept of exile in the thought of Edward Said

شينة نصيرة

المركز الجامعي بريكة (الجزائر)

fayrouz78@hotmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 / 04 / 09
تاريخ القبول:
2021 / 09 / 26

الكلمات المفتاحية:
- ✓ إدوارد سعيد
- ✓ مفهوم المنفى
- ✓ المنفى والإبداع
- ✓ المثقف الطباقي

الملخص:

مثّل المفكر إدوارد سعيد من خلال المحطات الأساسية من سيرته ، والتنقلات الكبرى في تطورات تفكيره النظري، نموذجا عن المثقف الفلسطيني صاحب النظرة الأصيلة العميقة إلى المنفى كمفهوم معقّد وتجربة قاسية، وقد حدد هذا الكاتب عبر مؤلفاتهومن خلال مواقفه ، ملامحَ المنفى كمصطلح وعدّد بواعثه وآثاره وبعض خصائصه ، وهو ما تحاول هذه الورقة البحثية الوقوف عليه ، بتوضيح مفهوم المنفى وعلاقته بالإبداع حسب رؤية هذا المفكر وتجربته الشخصية والأكاديمية. تأثر سعيد بتجربة المنفى وتفاعل مع معضلاته بشكل إيجابي خلّاق، فبدلا من أن يتحول المنفى عنده إلى مكان لرثاء النفس والانطواء على الذات، انطلق فكره وإبداعه في المنفى، وخلق لنفسه فضاءات من الرؤية المتوازنة للذات والآخر وللمنفى والوطن، كما أبرز أهمية نشاط المنفيين وإسهامهم في إنعاش الحركة الثقافية الحديثة في الغرب، بفضل ما تميزوا به من رؤية أصيلة وثراء ثقافي، ولطالما انتقد تجاهل فكرة أن المنفى يبقى محنة وخسارة فادحة لا تعوضها لذائذ البيئة الجديدة وبدائلها.

Article info

Received
09/04/2021
Accepted
26/09/2021

Keywords:
- ✓ *EDWARD SAID*
- ✓ *Concept of exile*
- ✓ *Exile and creativity*
- ✓ *The Cultural contrapuntal*

Abstract :

EDWARD SAID identified, throughhiswritings and his attitudes, the features of the exile as a term, in whichhe has mentioned few of itscharacteristics and itseffects, thispaperrefers to the concept of exile and itexplainsitsrelationship to creativity, based on the author's vision and personal and academicexperience.SAIDwasinfluenced by the experience of exile and heinteractedpositivley and creativelywithhisdilemmas, heturned exile into a creativeatmospherewherehesucceed in creating a balanced vision of himself, of the other and of his homeland. He alsohighlighted the importance of exiles' activism and their contribution to the revival of the modern cultural movement in the West.

مقدمة

بعد نكبة 1948م التي هزت كيان الفلسطينيين والعرب والمسلمين قاطبة، وما تبعها من تهجير الآلاف إلى الشتات والمنفى، كان للنفي القسري أثره الجسيم على نفسيات أدباء ومفكري الأرض السليبة، وعلى حياتهم ومستقبلهم، ومن ثمة على ذهنياتهم ورُؤاهم وإبداعاتهم التي صارت تُعرف فيما بعد بأدب المنفى، وقد أفرزت محنة النفي أسئلة مؤلمة صعبة على العقل الجمعي الفلسطيني، عن قلق الهوية والانتماء، وعن فكرة الوطن التي كانت حاضرة دائما في وعي المنفيين، وعن الكينونة والقلق الوجودي وحالة التشظي التي يعاني منها الوطن العربي المفكك.

ولقد شكلت فلسطين حضورا نافذا متجذرا في تكوين وفي شخصية المفكر والناقد إدوارد سعيد، ساهم في بلورة تصوراته ومواقفه تجاه تيمة المنفى ومتعلّقاتها؛ كتشكل الهوية وضبابية الانتماء والكينونة المبتورة. ولا غرو أن تجربة سعيد في المنفى كمثقف فلسطيني، وبعيدا عن وطنه، تضيف عمقا للمنفى كمفهوم ورؤية، في سياق المجتمعات والثقافات المختلفة التي عايشها في منفاه، وفي ظل الارتحال الدائم واللااستقرار الذي عاناه، شأنه شأن كل المنفيين في أجواء غريبة، اتسمت في بعض الأحيان بالعدائية التي حالت دون اندماجهم وانسجامهم في عالم المنفى.

لذلك ارتأينا جعل هذه الدراسة محاولة لبحث إشكالية مفهوم المنفى في تصور إدوارد سعيد، من خلال تجربته كمثقف وأكاديمي منفي، وكيف تمسي هذه التجربة المأساوية باعثا على الكتابة والإبداع عند المنفيين، وإلى أي درجة ساهمت خلفيته الثقافية الفريدة التي تماهى فيها الشرق والغرب في بلورة توجهه العالمي وتفكيره الطباقي.

1. كرونولوجيا النفي المركّب في تجربة إدوارد سعيد

عاش الكاتب والمفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" (1935-2003) تجربة النفي بامتياز؛ فبمجرد بلوغه سن الثالثة عشرة نزحت عائلته المقدسية إلى مصر عقب نكبة 1948، وهي عائلة مسيحية مكونة من أب فلسطيني يحمل الجنسية الأمريكية، وأم فلسطينية تحصلت في طور متأخر من حياتها على الجنسية اللبنانية، وهناك (في مصر)، وبصفته ابن رجل أعمال أمريكي، تعلّم سعيد في مدارس أمريكية بإدارات أجنبية، تدرس بالإنجليزية أولا والفرنسية ثانيا.

وكان أبواه يقيمان بشكل متقطع بين فلسطين حينا ومصر ولبنان حينا آخر، فاكتنفت نشأته طفلا ويافعا ازدواجية العيش بين حي الطالبية بالقدس الغربية طورا، وحي الزمالك بالقاهرة طورا آخر، ناهيك عن ارتحالهم إلى لبنان من حين لآخر وبخاصة منطقة "ضهور الشّوير". (سعيد، 2000، صفحة 45).

التحق سعيد بكلية فيكتوريا كوليدج بالقاهرة وفي سنة 1951 أرسله والده إلى مدرسة في ماساشوستس في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي مدرسة داخلية إعدادية نخبوية تخرج منها سنة 1953. وفي سنة 1957 نال سعيد إجازة من جامعة برنستون، ثم حاز شهادتي الماجستير (1960) والدكتوراه في الأدب الإنجليزي سنة (1964) من جامعة هارفرد، وزاول بعد ذلك التدريس في جامعة كولومبيا بنيويورك لتغدو هذه الجامعة بمثابة منزله الأكاديمي خلال ما تبقى من مسيرته الفكرية، وتصبح مدينة نيويورك فيما بعد منفاه ومكان إقامته إلى حين وفاته، وفي أمريكا تحصل على الجنسية الأمريكية وتولى صفة أستاذ زائر في جامعات مثل هارفرد وستانفورد وغيرها. (باشاك، 2011، صفحة 10).

ظل سعيد منعزلا عن الشرق الأوسط حتى أواخر الستينيات وبالضبط حتى سنة 1967، حيث اقتلعته الحرب التي وقعت بين العرب واليهود من دائرة تركيزه الأساسي على الأدب الإنجليزي والأدب المقارن، وتسببت في ولادة ثانية له فلسطينيا وعربيا، وأعادت ربط علاقته بالعالم العربي، وهكذا وجد نفسه يفكر ويكتب طباقيا بدافع من تجاربه العربية والأمريكية.

«كان الحدث الذي أثر على تفكيره هو حرب الستة أيام سنة 1967، وكانت هذه مواجهة تركت المصريين والفلسطينيين على حال المنهزم المهان دون شك، كانت عائلة إدوارد سعيد مقيمة في القاهرة، بينما كان هو يعيش في الولايات المتحدة منذ 1951، ولم يكن قد اتخذ منظورا سياسيا بعدُ قبلَ سنة 1967. قرر بعد هذا التاريخ بأن وجوده انطوى على مستويين مختلفين تماما، ففي الجامعة التي كانت عالمه المهني، لم يُشِر أبدا إلى أصوله الفلسطينية، ودرس كُتابا أوروبيين أو أمريكيين. أما خارج أسوار الجامعة فقد أصبح منخرطا بشكل متزايد في شؤون بلده المسلوب. انضم سعيد إلى المجلس الوطني الفلسطيني سنة 1977 وكان المجلس برلمان المنفى لوطنه غير الموجود». (تودوروف، 2004) .وفي سنة 1992، زار سعيد فلسطين رفقة عائلته بعد غياب دام خمسا وأربعين سنة، وكانت زيارته لبيته القديم الذي عاش فيه طفولته مؤثّرة جدا، بل بمثابة صدمة اختبر فيها الكثير من الارتباط العاطفي.

لقد نُفِي سعيد خارج ثقافته ثلاث مرات على الأقل؛ الأولى تجسدت في كونه كأي فلسطيني مطرودا من أرضه موسوما بصفة (لاجئ) أينما حل، وثانيا ليس من السهل أن تكون عربي الأصل والثقافة في غرب تسيطر عليه مجموعات تعادي العرب وثقافتهم، وأخيرا هو منفيّ إلى درجة ما من قبل أبناء جلدته أنفسهم لكثرة ما غرّد خارج السرب، فإضافة إلى المنفى الجغرافي المكاني، واجه سعيد نفيا بالمعنى السياسي والثقافي، فهو لم يسلم من الاتهامات والتخوين حينا، ومن القراءات الخاطئة لفكره ولكتاباته حينا آخر، سواء من قبل غربيين في أوروبا والولايات المتحدة أو من قبل عرب وفلسطينيين. (عزيزة، 2019).

عاش إدوارد سعيد حياته عبر سلسلة من المنافي، مرتحلا بين القدس والقاهرة وبيروت وأميركا، وبين البيئة العربية والبيئة الأمريكية، حاول بناء جسر بين هاتين الثقافتين المتناقضتين سعيا لردم هوّة الضياع الهائلة بين وطنه ومنفاه، بين الشرق والغرب، بين عالمه الأصلي القديم ومحيطه الجديد. ولعل أكثر ما يصعّد من حدة القسوة والانفصام في تجربة سعيد في النفي، هو تعدد وتكرار فعل النفي في محطات حياته المختلفة، على مستويات مختلفة مسّت هويته كفلسطيني، ورجل شرقي، ومناضل سياسي، فأضحى منفاه بناء على ذلك منفى مركبا متعددا.

2. حول مفهوم المنفى

1.2. سمات المنفى

حضرت تيمة "المنفى" بصفة طاغية في حياة واهتمام إدوارد سعيد كما في نتاجه الفكري والنقدي، وهو القائل عن حياته: «كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي... خصوصا جغرافية الارتحال، من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن والانتماء، ناهيك عن السفر ذاته». (سعيد، 2000، صفحة 22).

لقد قوّض سعيد المفهوم النمطي السائد عن المنفى، الذي اختزلت دلالته في معانٍ توحي بالسلبية انحصرت في التشتت والإبعاد والطرد والحرمان والتهميش والإقصاء، وأعطاه مدلولا خاصا ذا زوايا متعددة مستوحى من تجربته الخاصة كمفكر فلسطيني منفي، يقول: «المنفى انفصام وإقصاء قسري: إنه الشرخ المفروض الذي لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها الحقيقي: فلا يمكن

البتة التغلب على ما يولده من شجن أساسي». (سعيد، 2007، صفحة ص117) ذلك الشجن المتولد من الإحساس بالغربة والعزلة وصفه سعيد بـ"الشالّ"، جرّاء حالة التيه والضياع والعجز التي يعانيها المنفيّ في محنته، و«تكمن لوعة النفي في ضياع الصلة مع صلابة الأرض وما تتيحه من إرواء وإشباع: من هنا ما نجده من أنّ العودة إلى الديار لا يمكن أن تكون موضع شك». (سعيد، 2007، صفحة ص124).

ولكن رغم هذا الثبات الراسخ والتشبث بأمل العودة الذي لا يقبل النقاش، فإن أكثر ما يكرّس لوعة المنفي ديمومةُ معاناته واستمرار غربته واستحالة عودته للديار، فالمنفى قدر محتوم لا فكاك منه، يتساءل سعيد: «أليس صحيحا أن النظرة إلى المنفى في الأدب، بل وفي الدين، تخفي ما هو رهيب وفظيع في حقيقته: وهو أن المنفى أمر دنيوي على نحو لا براء منه وتاريخي بصورة لا تطاق؛ وأنه من فعل البشر في حق سواهم من البشر، وأنه، شأن الموت، إنما من غير نعمة الموت الأخيرة، قد اقتلع ملايين البشر من منهل التراث، والأسرة، والجغرافيا؟». (سعيد، 2007، صفحة ص118).

ولعل أصعب ما في هذا التساؤل اعتراف سعيد أن اجتثاث المرء من جذوره وأرضه وجماعته هو أشبه بالموت، لا بل أفظع؛ ذلك أن الموت يمنح صاحبه راحة ويضع حدا لمعاناته، أما المنفى فموت مع عذاب مستمر، موت بلا راحة، إنه القطيعة الأبدية بين المنفيّ وما عرفه وألفه في حياته الأصلية. وفي انتظار عودة الحياة إلى هذا الميت بعودته لموطنه، وارتباطه من جديد بهويته (التراث) ومجتمعه (الأسرة) وأرضه (الجغرافيا)، يبقى عقابه مستمرا، بلا نهاية ودون توقف.

والأصعب من ذلك أن يشعر المرء بالغربة وعدم القدرة على الاندماج مع أصوله وتراثه إذا ما تحقق حلم العودة، والتحق بموطنه الأول، فلا هو قادر على العودة إلى المنفى والاندماج مع ثقافته الغريبة التي فرّ منها، ولا هو نجح في تحقيق الانسجام والتماهي في ثقافته الأصلية، فأي ضياع وأي غربة يقاسيها هذا الذي أضاع وطنه بعد أن تنكّر كل منهما للآخر.

يقول سعيد عن "راشد حسين" المثقف الفلسطيني الذي عاش حياة المنفى في نيويورك: «...وفي سنة 1972 عاد إلى العالم العربي، لكنه لم يمكث هناك سوى بضعة شهور عاد بعدها إلى الولايات المتحدة: فقد شعر بالغربة في سوريا ولبنان، وبالتعاسة في القاهرة، وآوته نيويورك من جديد...». (سعيد، 2007، الصفحات 119-120)لا غرو أن الرجل أضاع بوصلة انتمائه، حتى ليبدو أن هذا هو ما تهدف السلطة الظالمة أن يكون مآل المنفيين ونتيجة إقصائهم وإبعادهم.

وكان مطلب اختيار الهامش دائما هو الخيط الناظم لدى إدوارد سعيد بين المثقف والمنفي، لكن تقديره للوضع الذي يعيشه المنفيون كان تقديرا متضاربا. قال في الوقت عينه بأن "المنفى هو أقسى الأقدار"، وبأنه يدعو إلى التأمل، لأن "المنفى بالنسبة للمثقف وضع مقلق يدعو إلى الحركة الدائمة ولا يستقر على حال، كما أنه يُقلق راحة الآخرين". إن كان المثقف هو ذلك الفرد المستعد دائما لمساءلة صنوف وجوده، فإن أي مثقف يعتبر منفيا بمعنىً ما عن مكان ميلاده. (تودوروف، 2004).

غير أن ما يتركه المنفى في شخصية المبعد – مثقفا كان أم غير مثقف– من تشوهات وندوب يتعدى الصورة البسيطة المسطحة لفعل النفي، إلى ما هو أعمق وأقسى، إنه شرخ حادّ لا يندمل، وانفصام لا التئام له، وضياع بلا عودة إنه الموت بعينه. فالمرء بلا هوية هو كائن بلا وجود.

لذلك ينظر سعيد إلى فعل النفي كعقاب قاسٍ وقدر محتوم، فهو «ضرب من العقاب السياسي المعاصر» (سعيد، 2007، صفحة 120)، و«هو في جوهره حالة متقطعة من حالات الكينونة، فالمنفيون مجتثّون من جذورهم، ومن أرضهم، ومن ماضيهم... ولذا يشعر

المنفيون بتلك الحاجة الملحة لإعادة تشكيل حيواتهم المحطمة، وذلك عادة عن طريق اختيارهم أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم جزء من إيديولوجيا ظافرة أو شعب متجدد، والشيء الحاسم أن حالة النفي الخالية من هذه الإيديولوجيا الظافرة (المتفائلة)، المصممة للمّ شتات تاريخ المنفى المحطم في كلٍّ جديد، هي حالة لا يمكن احتمالها في النهاية، وهي في النهاية حالة مستحيلة في عالم اليوم، أنظروا إلى مصير اليهود والفلسطينيين والأرمن». (سعيد، 2007، صفحة 122).

هكذا كان سمات المنفى في تصور إدوارد سعيد كمثقف منفي ومهاجر، ووفق تجربته وفلسفته العميقة المعقدة، وخبرته وانفتاحه الفكري، هوّةً قسرية لا تنجبر بين الكائن البشري وموطنه الأصلي، وبين النفس ووطنها الحقيقي، ولا يمكن التغلّب على الحزن الناجم عن هذا الانقطاع. وأياً كانت إنجازات المنفيّ، فإنها خاضعة على الدوام لإحساس الفقد، وهو في الوقت ذاته مدعاة للتأمل لأنه حالة استثنائية وقسرية في آن معا، وحياة خارج النظام المألوف وخارج الاستقرار والاطمئنان والرضا.

2.2. بين المنفي والمهاجر واللاجئ

إن النفي في عمومه هو بتر مأساوي للجذور والروابط الإنسانية، ورغم أن كل مبعدٍ عن أرضه وكل من يُحال بينه وبين وطنه يعدّ منفيا، إلا أننا ينبغي أن نقيم بعض الفوارق في تحديدنا لمعنى "المنفي" واللاجئ" و"المغترب" و"المهاجر"، والتي يوضحها سعيد بقوله: «المنفيّ يجد أصله في عمليات الطرد القديمة جدا، وما إن يُطرد، حتى يعيش المنفيّ حياة شاذة وبائسة، موصوما بوصمة الخارجي، أما اللاجئون، فهم نتاج دولة القرن العشرين. ولقد غدت كلمة "لاجئ" كلمة سياسية، تشير إلى أسراب كبيرة من الأبرياء والحائرين الذين يحتاجون إلى مساعدة دولية عاجلة، في حين تنطوي كلمة "المنفي" كما أرى على لمسة من العزلة والروحانية». (سعيد، 2007، صفحة 126)

للتمييز بين المهاجروالمنفي يقول "جان عبدول مُحَمَّد" في معرض تحليله لوضع إدوارد سعيد كمثقف منفي ومحسوب على "مثقفي الحدود"، (القول مأخوذ من دراسته المعنونة بـ:العالمية من غير عالم، المنفى وطنا: نحو تعريف لمثقف الحدود المحايد،عن كتاب: مايكل سبرينغ *Michael Sprinker, Edward Said: A Critical Reader, (Oxford: Blackwell, 1992, p96)*، أنه «في الوقت الذي يقوم فيه كل من المنفي والمهاجر بعبور الحدود بين مجموعة قومية أو اجتماعية وأخرى، فإن موقف المنفي من الثقافة المضيفة سلبي، فيما يتخذ المهاجر من تلك الثقافة موقفا إيجابيا ... إن النوستالجيا الخاصة بالمنفى تدفع الفرد في العادة لكي يكون غير مبالٍ بالقيم والخصائص المتعلقة بالثقافة المضيفة؛ إن المنفي، يختار، إذا كان بمقدوره أن يختار، أن يعيش في سياق غير مرحب، سياق يشبه "الوطن"». (فخري، 2007، صفحة 16) ويخلص "جان مُحَمَّد" في النهاية إلى أن سعيد "ليس منفيا تماما، وليس مهاجرا كذلك".

ويرجع هذا الالتباس في وضعيته كمثقف منفي، إلى أن سعيد يكتب للقارئ الغربي، لا للقارئ في ثقافته الأم، وإلى خصوصية حالة النفي ذاتها لدى عامة المنفيين؛ ذلك أن المنطقة الحدودية التي تصل بين الثقافات والأعراق والشعوب، تتضمن في الواقع وضعية من التمايزات المتداخلة والغامضة، ما يجعل المنفى كمفهوم، مزيجا معقدا وغريبا من التناقضات المحيّرة إلى حد بعيد، يحيل من جهة على أهمية البعد النفسي في هذه التجربة، ومن جهة أخرى على فكرة أن المنفى في جوهره هو هويّة مكتسبة تقيم على حدود الثقافات، تعلم الذات والآخر احترام التداخل بين الثقافات والتقارب بين الشعوب والأعراق، وتشحذ رؤية المنفي وتوسع أفقه، وتعمق إحساسه بالتجرد وعدم التحيز، ما يثمن وظيفة المنفيين في إزالة العوائق في الفكر والتجربة، من خلال نجاحهم في عبور الحدود بين الثقافات.

إن فكرة المنفى تشدّد دوما على غياب "الوطن"، غياب النسيج الثقافي الذي يشكّل هوية وثقافة الذات الفردية، ومن ثمّ فإنه مفهوم يتضمن تمزقا لا إراديا ومفروضا، للعلاقة بين الذات الجمعية لتلك الثقافة والذات الفردية المنصرمة عنها قسرا.

وإذا كان سعيد قد أضفى على تجربة المنفيّ مسحة رومانسية صوفية (لمسة من العزلة والروحانية)، فقد ركز بالمقابل على ما يتمتع به "المهاجر" و"المغترب" من حرية في الاختيار وطواعية المغادرة والاغتراب، وهي حرية وإرادة حُرِمَها "المنفيّ" حتما بفعل الطرد والإبعاد القسري.

3.2. سعيد والنفي المتجدد

وقد يكون فعل النفي مكررا متجددا؛ ولعل أغرب مصير بين مصائر المنفى، أن تكون منفيا من قبل منفيين، أن تتجدد عملية الاقتلاع فعلا على أيدي منفيين. «لم يبق فلسطيني إلا وتساءل في صيف 1982 أيُّ دافع خفي دفع إسرائيل، التي سبق لها أن اقتلعت الفلسطينيين في عام 1948، لأن تواصل طردهم من بيوت ومخيمات اللجوء في لبنان. وكأن التجربة الجمعية اليهودية التي أعيد بناؤها، على النحو الذي تمثله إسرائيل والصهيونية الحديثة، لا تطيق أن تتواجد بجانبها تجربة أخرى من قصص الاستلاب والضياع، وهذه عدم إطاقة لطالما عززها العداء الإسرائيلي لوطنية الفلسطينيين، الذي عانوا أشد المعاناة طوال ستة وأربعين عاما وهم يلمون في المنفى شتات هوية وطنية». (سعيد، 2007، صفحة 122).

إن نفي الفلسطينيين هو نفي مكرر ذو خصوصية وتفرد؛ إذ تتضمن التجربة الفلسطينية أنواعا عديدة من الابتعاد القسري، والنفي العنيف، وأحيانا الاغتراب عن الوطن، لأن الشروط السياسية والاجتماعية والثقافية دفعت الفلسطينيين إلى خارج الوطن الأم، في ظروف شديدة التعقيد خلال رحلة الشتات الفلسطينية المستمرة. ورغم أن الفلسطيني يُعدّ "المنفيّ بامتياز"، إلا أن ظلالا لا حصر لها، وسياقات نفي عديدة، تحيط بالتجربة الفلسطينية. يصدق هذا الوضع كذلك على عدد كبير من مجتمعات الشتات الناشئة، نتيجة ظروف سياسية أو اقتصادية بعينها، والممتدة إلى معظم أصقاع العالم في أزمنة الحداثة، ما يفضي إلى تعقيد مفهوم المنفى وضرورة النظر إليه من جوانب مختلفة وعدم الاكتفاء بالمعنى اللغوي ذي الدلالات السلبية لهذا المصطلح. (فخري، 2007، صفحة 17).

والأغرب من نفي الفلسطينيين المتعدد المتجدد، وهو حالة غريبة من النفي، تجربة سعيد ذاته التي تعد أشد غرابة وتعقيدا؛ فهو منفي كفلسطيني من طرف الصهاينة المنفيين المشتتين عبر التاريخ، ومنفي إلى الولايات المتحدة الأمريكية (لأنها الأنسب في نظر ذويه لدراسته) من طرف منفيين آخرين وهم أسرته، كما مورس عليه فعل النفي على المستوى الفكري السياسي من قبل بني جلدته من الفلسطينيين المنفيين هم أنفسهم، وذلك نتيجة أفكاره ومواقفه السياسية التي لم ترُق العديد منهم، ما يضعنا أمام حالة نفي خاصة جدا، يصدق عليها تعبير "النفي المركب".

4.2. اقتران المنفى بالقومية

تقترن القومية بالمنفى اقترانا "صميميا" كما يصفه إدوارد سعيد؛ فالقومية هي «تأكيد على الانتماء إلى مكان، وشعب، وتراث. وهي تؤكد على الوطن الذي خلقته جماعة تتقاسم اللغة، والثقافة، والعادات، وهي، بفعلها هذا، إنما تدرأ النفي، وتقاتل للحيلولة دون ما يجره من خراب، والحق، أن التفاعل بين القومية والمنفى هو أشبه بديالكتيك العبد والسيد عند هيغل، حيث يعمل كل من هذين الضدين على إملاء الآخر وتشكيله. فكل القوميات في مراحلها الأولى تتطور انطلاقا من حالة الغربة. والكفاحات التي خيضت من أجل نيل

استقلالها، ومن أجل توحيد ألمانيا وإيطاليا، ومن أجل تحرير الجزائر هي كفاحات تلك الجماعات القومية التي أبعدت أو نفيت عما يعتبر طريقتها الملائمة في الحياة». (سعيد، 2007، الصفحات 120-121).

ولا يمكن مناقشة المنفى والقومية على نحو محايد ومنفصل، دون أن يحيل أحدهما عن الآخر، فهذان التعبيران كلاهما يشتمل على كل شيء من أشد العواطف الجمعية جمعيةً إلى أشد الانفعالات الخصوصية خصوصيةً، بحيث لا يكاد أن يكون ثمة لغة تفي بكليهما. غير أن المؤكد أن ما من شيء يتعلق بالمطامح القومية العامة والشاملة يمس لب ورطة المنفى؛ ذلك أن القومية حالة شبه دائمة، بينما يشكل المنفى حالة كينونة متقطعة، وتتأسس القومية على ارتباط المرء بتراثه ووطنه وأرضه، في حين يمثل المنفى قطيعة مبرمة بكل تلك الجذور والروابط. كما تختلف القومية عن المنفى أيضا في جوهر هام؛ فالقوميات أمر يتعلق بالجماعة، أما المنفى فهو عزلة تعاش خارج الجماعة بإحساس بالغ الحدة، حيث يُشعَر بضروب الحرمان لعدم وجود المرء مع الآخرين في الموطن المشترك. (سعيد، 2007، الصفحات 121-122).

ويولد افتقار المنفي لتضامن الجماعة والإحساس بالقومية والحياة المشتركة مشاعر سلبية أبرزها الغيرة والانكفاء على الذات، «فما تحققه هو بالضبط ما لا تتمنى أن تتشاطره مع أحد، وبرسمك الخطوط من حولك ومن حول أبناء بلدك إنما تبرز أسوأ الجوانب في حالة النفي: ذلك الإحساس المفرط بتضامن الجماعة، وذلك العداء المشبوب تجاه من هم خارجها، بمن فيهم أولئك الواقعين في ذات الورطة مثلك». (سعيد، 2007، صفحة 123).

القوميات تدور حول الجماعات، بينما يدور المنفى حول غياب الجماعة الوضعية، المتموضعة في موطن أصلي. فكيف للمرء أن يتغلّب على عزلة المنفى، دون أن يقع فريسة لغة الفخار القومي والعواطف الجَمْعية ومشاعر الجماعة؟ المنفيّ لا يملك سوى القليل، ولهذا فإنه يتشبث بما يملكه ويدافع عنه بشراسة. وهكذا تتنامى مشاعر الانطواء والاستئثار والتضامن داخل الجماعة الصغيرة. ومن هنا أيضاً تولد تلك الحالة القصوى من مناخات المنفى: أي معاناة النفي، على يد فئة منفية أصلاً. (حديدي، 2020).

والفلسطينيون كغيرهم من المنفيين المشردين، يعلمون أن إحساسهم بالهوية الوطنية قد ترعرع في وسط المنفى، حيث كل من لا تربطهم به صلة الدم هو عدو، وحيث كل متعاطف هو عميل لهذه القوة المناوئة أو تلك، وحيث أدنى انحراف عن خط الجماعة المقبول هو أبشع فعل من أفعال الخيانة والخروج. (سعيد، 2007، صفحة 123).

ولا شك أن سعيد وهو يجتهد في توضيح العلاقة بين المنفى والقومية، ينطلق من تجربته الخاصة واستنادا إلى ما وقع عليه من اتهام بالخيانة نتيجة معارضته الشديدة لاتفاقيات أوسلو 1994، وكذا دعوته العرب إلى الاعتراف بالمحرقة اليهودية في إطار نظرته الكونية الإنسانية للثقافات والحضارات، فإشارته إلى استبعاد الفلسطينيين والمنفيين عامة لكل مخالف لرأي الجماعة، واتهامه بالخيانة وتهديد مصلحة وأهداف قوميتهم، إنما هو تلميح لما قاساه من مواطنيه جراء مواقفه الجريئة الصريحة، التي لم تكن تتماشى مع التوجه السياسي القومي للرأي العام الفلسطيني آنذاك.

إن العلاقة بين المنفى والقومية معقدة وضبابية، فعلى قدر تقارب وتداخل هذين المصطلحين فإنهما يتباينان وينفصلان في الجوهر والتوجه، فالقومية تنشأ من حالة الغربة التي هي جوهر المنفى وواجهته، وأشد ما يفتقده المنفي في غربته قوميّتُه وانتماؤه، غير أن القومية تخالف المنفى في المطامح وفي ما يحيل إليه كل منهما من معاني؛ فالمنفى يتضمن دلالات الإقصاء والانفراد وقطع الروابط، فيما تحيل

القومية على معنى الارتباط والتجمع والاشتراك، وكما تكرّس القومية قوة أفراد الجماعة باتحادهم وتضامنهم، يعمق المنفى عزلة المطرود وإحساسه بالضعف والوحدة.

3. المنفى عالم اللاانتماء واللاواقعية

يفرز المنفى العديد من القضايا الشائكة والمشاكل والأحاسيس غير المألوفة التي تواجه المنفي في محيطه الجديد، ويعد هاجس الانتماء من أهم المسائل التي تلحّ عليه في محنته فتقلق ضميره وتنغّص حياته، وتطرح تساؤلات كبرى حول مستقبله ومصير هويته، ويمكن وصف حيّز المنفى بأنه منطقة اللاانتماء وخارج المكان، أين يضيع المنفي في الحدود الفاصلة بين عالمين مختلفين وربما متناقضين، فيبقى في دائرة اللاانتماء ورفض الانحياز ليجد نفسه عالقا في منطقة رمادية لا هي سوداء ولا هي بيضاء. ويبقى كل ما يحققه المنفي في الغربة من مآثر وإنجازات، لا يعدو أن يكون جهودا لتجاوز النفي والتغلب على أسى الغربة الإحساس بالفقد.

يستعيد إدوارد وضعيته كمنفي بالمعنيين السياسي والثقافي، ويشرح لقارئه الأجنبي كيف أصبح وعائلته منفيين من الوطن، ويوضح هذا الوضع بالنسبة له ولباقي الفلسطينيين، قائلا في كتابه "بعد السماء الأخيرة": «لقد تبخر من حياتي وحياة الفلسطينيين جميعا ثبات الجغرافيا وامتداد الأرض، وحتى لو لم يقم أحدهم بإيقافنا على الحدود أو سوقنا إلى مخيمات جديدة أو منعنا من الدخول أو الإقامة أو السفر من مكان إلى آخر، فإن أراضينا يجري احتلالها ويتدخل الآخرون في حياة كل منا بصورة اعتباطية وتمنع أصواتنا من الوصول إلى بعضنا البعض؛ إن هويتنا تقيد وتحبس وتحاصر في جزر صغيرة خائفة، ضمن محيط غير مضياف تحكمه قوة عسكرية عليا، تستخدم رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة العرقية الخالصة». (فخري، 2007، صفحة 18) نقلا عن:

(Said Edward,1986, After the Last Sky, London, Faber and Faber, pp19-20)

إن عالم المنفيّ الجديد هو عالم غير طبيعي، يشبه اللاواقعية التي يتسم بها عالم القص والخيال ... ومهما حقق المنفيون من نجاحات، فإنهم يظلون على الدوام أولئك الشذاذ الذين يشعرون باختلافهم (حتى وهم يستثمرونه في كثير من الأحيان) على أنه نوع من اليتم، وكل من هو شريد حقا إنما يعتبر تلك العادة المتمثلة برؤية الغرابة والجفوة في كل ما هو حديث نوعا من التصنع، والتظاهر بالسير على الزي الدارج. والمنفي، إذ يتشبث باختلافه مثل سلاح سيستخدم بعزيمة لا تلين، إنما يلح بغيرة على حقه أو حقها في رفض الانتماء. (سعيد، 2007، صفحة 127). ينظر المنفيون إلى غير المنفيين نظرة استياء وسخط، فهم ينتمون إلى محيطهم، أما المنفي فغريب على الدوام، فما الذي يعنيه أن تولد في مكان – يتساءل سعيد– وأن تمكث وتعيش فيه، وأن تعرف أنك منه، إلى ما يقارب الأبد؟ (سعيد، 2007، صفحة 125).

ولقد عاش سعيد هذه التجربة المريرة تجربة الانشطار بين عالمين، عربي مشرقي وغربي أمريكي، يقول في كتابه "الثقافة والإمبريالية": «لقد نشأت لأسباب موضوعية لم يكن بوسعي السيطرة عليها، عربيا ذا تعليم غربي، ومنذ أقصى لحظة أستطيع استذكارها أحسست بأنني أنتمي إلى كلا العالمين، دون أن أكون كلية جزءً عضويا من أي منهما... بيد أنني حين أقول "منفى" فأنا لا أعني ما هو حزين أو محروم بل على العكس، ذلك أن انتماءك إلى كلا ضفتي الفالق الإمبريالي يتيح لك أن تفهمهما بسهولة أكبر». (سعيد، 1998، صفحة 71) يقول الشاعر الفلسطيني "محمود درويش" عن إدوارد سعيد في قصيدة "طباق": (درويش، 2005، صفحة 179) يقول:

أنا مِنْ هُناك، أنا مِنْ هُنا

ولستُ هناك، ولستُ هُنا

لي اسمان يلتقيان ويفترقان...
ولي لُغتان، نَسِيتُ بِأَيِّهِما
كنت أحْلُم
لِي لُغة إنجليزية للكتابة،
طَيِّعَة المُفْرَدات،
ولِي لُغةٌ مِنْ حِوارِ السَّماء
مع القُدُسِ، فِضِّيَّةُ النَّبْر
لكنّها لا تُطيعُ مُخَيِّلَتِي

فالانتماء إذن هو معضلة المنفيّ الأولى ومشكلته العويصة، وهو يحاول تجاوز هذه المعضلة بطرق مبتكرة تمليها عليه ظروف المنفى وخصوصياته. من بين هذه الطرق تظاهر المنفي بالسير على نمط العيش الدارج في منفاه حتى يقلل من حدة اختلافه وعزلته في بيئته الجديدة، بيد أن ذلك يظل منطويا على خطورة: فعادة التظاهر مرهقة ومتلفة للأعصاب على السواء، فالمنفى حياة تُعاش خارج النظام المعتاد، حياة مترحلة، طباقية، بلا مركز؛ وما إن يألفها الإنسان ويعتاد عليها حتى تتفجر قواها المزعزعة من جديد. (سعيد، 2007، صفحة 133).

أما أكثر الطرق شيوعا والتي تفرض نفسها عنوة، فهي ذلك الضغط الذي يمارَس على المنفي لكي ينضم إلى الأحزاب، والحركات القومية، والدولة، حيث تُقدَّم للمنفي مجموعة جديدة من الانتماءات ويطور ولاءات جديدة، غير أن خسارة كبرى تواكب ذلك في النظرة النقدية، والحصافة الفكرية، والشجاعة الأدبية. (سعيد، 2007، صفحة 130).

لم يكن الحنين إلى العودة إلى الأرض الأم هو ما أوقد التزام إدوارد سعيد ، فقد كان بعد كل هذا مثقفا كونيا وجد ضالته في نيويورك: المدينة الأكثر كوزموبوليتية في العالم، بل كان التهديد الدائم حول هويته التي اعتُبرت غير موجودة، مع الإحساس بظلم تاريخي هما السبب. (تودوروف، 2004).

ولا شك أن الرجوع إلى الأَصل طبيعة إنسانية، لكن مفارقة الانتماء عند سعيد تظهر بشكل واضح في تعددية الهوية التي تتجلى في كونه «ناشطا سياسيا فلسطينيا يحمل جواز سفر أمريكي، ولكونه يكلم الأمريكيين والغربيين عموما بلغتهم وبأسلوب بالغ الذكاء والتمكن الثقافي والسياسي، على الرغم من أصله العربي الفلسطيني». (البازعي، 2010، صفحة 948).

ويبدو أن إحساس سعيد بمفارقة الانتماء تلك قد بدأ منذ سن مبكرة، عندما بدأ يعي غربته في مدارس القاهرة إذ يقول: «إنني كنت في مصر ولكني لست مصريا، وأنا عربي ولكني لست مسلما، وأنا مسيحي لكني بروتستانتي ولست مسيحيا كاثوليكيا، وأنا ناطق بالإنجليزية ولكنني لست إنجليزيا، وأنا أمريكي ولم يسبق لي أن ذهبت إلى أميركا». (سعيد، 2002، صفحة 104).

ويعلق "تازفيطان تودوروف" (وكان صديقا لإدوارد سعيد) على حالة الضياع الهووي التي نغصت عليه حياته قائلا:« لكل المهاجرين شخصيات متعددة، لأنهم جربوا شرخا بين ما قبل وما بعد، يجربهما كل واحد بطريقته الخاصة. كانت تجربة إدوارد سعيد على الخصوص تجربة معقدة، وحمل آثارها في اسمه ذي النصف الإنجليزي والنصف العربي. أتى إدوارد سعيد من بلد غير موجود، نُفي إلى مصر وتعلم في مدارس خُصِّصت لنخبة مصر تُعلم باللغة الإنجليزية، لكن بروح من الاحتقار أو الرفض لثقافة البلد الأصلي. ونفي مرة أخرى إلى

الولايات المتحدة، حيث تقبّلته أكثر الجامعات رقيا، وأغاظته السياسة القومية الخارجية لبلده بالتبني بحيث لم يستطع الرجل أن يقول هل العربية أم الإنجليزية هي لغته الأم، أو ما إن كان يتكلم لغة المستعمر أو لغة الطبقة الحاكمة». (تودوروف، 2004).

يتعلق المنفى بوجود الموطن الأصلي وحبّه والارتباط به، إنه تصعيد للحدود الوطنية أو الأقاليمية، ولكن ما هو حقيقي في كل حالة نفي ليس فقدان الوطن وحبّ الوطن، بل أنّ الفقد موروث في الوجود ذاته للوطن، ولحبّ الوطن.

يناقش سعيد مفهوم الوطن عبر سرده لتجربة وآراء الفيلسوف والناقد الألماني اليهودي "ثيودور أدورنو"، والتي عبر عنها عبر صفحات سيرته الذاتية التي كتبها في المنفى، وأسماها "مينيماموراليا" أو "الأخلاق الصغرى"، بعنوان فرعي هو "أفكار من حياة مشوهة"، حيث «عارض بلا هوادة ما دعاه بالعالم "المدار"، ورأى بأن الحياة برمتها قد ضغطت في قوالب جاهزة، أو في "أوطان" مسبقة الصنع ... وما يملي تأملات أدورنو هو الاعتقاد بأن الوطن الوحيد المتاح الآن حقا، على الرغم من هشاشته وعطبه، هو في الكتابة ... لقد غدا الوطن من الماضي ... فهذه (الأوطان) لم تعد صالحة إلا للاستعمال المؤقت الذي تُرمَى بعده كعلب المأكولات الفارغة، وباختصار، كما يقول أدورنو بسخرية مريرة، فقد غدا جزءً من الأخلاقيات ألا يشعر الإنسان بالراحة حتى في وطنه». (سعيد، 2007، صفحة 131).

فالمنفى إذن ليس موقع امتياز يتيح للفرد الاستقرار وممارسة التأمل الذاتي، وإذا اختار المنفيّ الامتناع عن ممارسة النقد العميق، والاكتفاء بلعق جراحه على الخطوط الجانبية للحياة، فإنّ من واجبه أن يطوّر حسّاً معمقاً بالذات، من النوع الذي فعله "ثيودورأدورنو" في عمله الهامّ"الأخلاق الصغرى"، ولقد رأى هذا الفيلسوف الألماني – وإدوارد سعيد كذلك– أن الحياة تنضغط في أوطان جاهزة مسبقة الصنع، والواجب الأخلاقي يقتضي ألا يشعر المرء بالاستقرار في أي مقام. هذه هي المهمة الفكرية التي يتولاها المنفيّ.

ويشير "تودوروف" إلى فكرة هشاشة الأوطان في تصور سعيد فيقول: «لدي إحساس بأن سعيدا ثمَّن أكثر مع مرور الوقت وضع المنفي، وضع الفرد دون وطن كما أسميه. لقد وجد في فكرة الوجود داخل هوية قومية أو إثنية طرحا لا يُحتمل. لقد صنع من شيء كان ليكون لعنة مسارا مهنيا. أخبر صديقه "دانييل بارنباوم" سنة 2000: "لقد توصلت إلى اعتبار فكرة الشعوربالتواجد في الوطن مع مرور الوقت فكرة مبالغا فيها، بالكاد تثير في نفسي فكرة الوطن الأم أي مشاعر، أفضل التجوال أكثر". كان مستأجرا لشقةٍ انسجاما مع خياراته عوض امتلاك مسكن قارّ له». (تودوروف، 2004).

ونتيجة مزيج من العزلة الساحقة والحرمان والغربة التي يقاسيها المنفي، فإن أشد مخاوفه وأعظم هواجسه أن يموت وحيدا في مجتمع قاسٍ لا يفهمه ولا يكترث لحاله، فما من منفي إلا و«يخاف من ذلك المشهد الذي كُتب له ألا يكف عن تخيله، مشهد موته وحيدا، ذلك المشهد الذي لا تنيره، إذا جاز القول، سوى عيون لا تنمّ على استجابة، ولا تبدي عن تواصل». (سعيد، 2007، صفحة 126).

فالمنفى محنة مفروضة وعالم هش يفتقر إلى الاستقرار، كما يفتقد إلى الهدوء والسكينة، يعيشه المنفي بقلق وقلة ثقة وضياع، تتخللها معاناة عقدة الانتماء، وخوف الاضطهاد وخطر الإبادة، ويطور المنفيّ من خلال هذا العالم الهش وعيا مفرطا بالذاتية، يحقق من خلاله استقلاله وانفصاله بالعمل والإنجازات والنجاحات، التي يبرهن لنفسه من خلالها عن قدرته على الاستمرار والنجاح، بجهوده الفردية مستغنيا عن دعم وتضامن الجماعة. ويخلق من خلال ذلك وطنا بديلا في عالم أضحت فيه الأوطان مؤقتة وعابرة وغير ثابتة. لذلك يتوجب على المنفي وفق رؤية سعيد، أن يعيش تجربته في النفي بنمط يسمح بإحياء الهوية، وإحياء الحياة نفسها، والارتقاء بهما إلى وضعية أكثر اكتمالاً ومعنى.

5. المنفى والإبداع: بدائل لتجاوز الاغتراب

تأثر سعيد بتجربة المنفى وتفاعل مع معضلاته بشكل إيجابي خلّاق، فبدلا من أن يتحول المنفى عنده إلى مكان للحزن ورثاء النفس والانطواء على الذات، انطلق فكره وإبداعه في المنفى، وخلق لنفسه فضاءات من الرؤية المتوازنة للذات والآخر وللمنفى والوطن. ويشدد سعيد على أهمية نشاط المنفيين الفكري وإسهامهم البارز في إنعاش الحركة الثقافية الحديثة في الغرب، بفضل ما تميزوا به كمنفيين من رؤية أصيلة وثراء ثقافي، غير أنه ينتقد دائما تجاهل فكرة أن المنفى يبقى محنة وعذابا مدمرا، وخسارة فادحة لا تعوضها لذائذ البيئة الجديدة وبدائلها. إذ يقضي المنفي معظم حياته في التعويض عن خسارة مربكة بخلق عالم جديد يبسط سلطانه عليه، ولذا ليس من المدهش أن نجد بين المنفيين كثيرا من الروائيين، ولاعبي الشطرنج، والناشطين السياسيين، والمفكرين، فهذه المهن جميعا لا تتطلب سوى حد أدنى من التوظيف في الأشياء، إذ تضع الحركة والمهارة في المقام الأول. (سعيد، 2007، صفحة 127).

وإذا ما كان صحيحا أن الأدب والتاريخ يحفلان بأحداث بطولية، ورومانسية، ومجيدة، بل وظافرة حدثت في حياة النفي، إلا أن هذه الحوادث لا تعدو أن تكون جهودا يقصد منها التغلب على أسى الغربة الشال، فمآثر المنفى لا ينفك يقوّضها فقدان شيء ما خلّفه المرء وراءه إلى الأبد. ولكن إذا كان المنفى الحقيقي حالة فقدان مبرم، فكيف أمكن له أن يتحول بتلك السهولة إلى حافز قوي، بل ومُخَصِّب، من حوافز الثقافة الحديثة؟ يجيب سعيد عن هذا التساؤل قائلا: «لقد اعتدنا النظر إلى الحقبة الحديثة على أنها حقبة يتيمة ومغتربة روحيا، عصر القلق والغربة... والثقافة الغربية الحديثة هي في جزء كبير منها نتاج المنفيين، والمهاجرين، واللاجئين، والفكر الأكاديمي، والنظري، والجمالي في الولايات المتحدة لم يصل إلى ما هو عليه اليوم إلا بفضل أولئك الذين لجأوا إليها هربا من الفاشية، والشيوعية، وسوى ذلك من الأنظمة المجبولة على قمع الخارجين عليها وطردهم». (سعيد، 2007، صفحة 117).

يحتفل إدوارد سعيد بمجموعة بارزة من الأشخاص انطلاقا من وضعهم كمنفيين نموذجيين، حوّلوا تجربة المنفى القسري إلى طاقة خلاقة وإنجاز كبير، منهم الناقد اليهودي الألماني "إريك أورباخ" الذي ألّف كتابه الشهير "المحاكاة" خلال منفاه في إسطنبول في أربعينيات القرن الماضي، دون أن يكون لديه المصادر والمراجع التي تتصل بالأدب الغربي إلا القليل. لقد استطاع "أورباخ" بسبب ضغط المنفى على وعيه، وابتعاده لا عن الأرض الأم فحسب، بل عن الثقافة الأوروبية التي عدها الوطن الحقيقي له، أن يكتب عملا نقديا كلاسيكيا لا يضاهى، وقد كان المنفى حافزا ومحرضا لكي ينجز ذلك العمل. ويرى سعيد أن "أورباخ" قد حوّل المنفى من تحدٍّ وخطر أو حالة من اعتداء على ذاته الأوروبية، إلى مهمة رسالية حقيقية. (فخري، 2007، صفحة 18) نقلا عن:

(Said Edward, 1984, The World, the Text and the Critic pp 6-7)

يعني المنفى عند سعيد أنك ستكون دائما هامشيا، وأنّ ما تفعله بصفتك مثقفا أو مبدعا يجب أن يتم خلقه، لأنك لا تستطيع اتباع مسار محدد، بحكم افتقادك لذلك المسار وتلك البوصلة المرشدة، جراء اختلاف البيئة والإيديولوجيات بين المنفى والوطن، أو بين ما ورثه المنفي من قيم ومبادئ وبين ما يصطدم به من نظيراتها في المنفى، والتي تكاد تصل أحيانا لحد التناقض والتعارض.

أنْ نفكّر في فوائد المنفى كباعث على الموقف الإنساني والإبداع، أمر لا يعني التقليل من عذاباته الكبرى. والمبدعون المنفيون يسبغون الكرامة علىشرطٍ كان القصد منه في الأساس حرمانهم من الكرامة. لم يوظف سعيد كلمة النفي إطلاقا في سياق الإفصاح عن الأسى والحزن، بل على العكس، فهو عادة ما ينتقد الاستسهال عندما يتعلق الأمر بمناقشة المنفى؛ فالمنفى عنده حالة جغرافية وموقع مبدئي، و«تتوفر غالبية الناس على وعي بثقافة وبيئة وبلاد، ولكن المنفيين في المقابل يعرفون ثقافتين على الأقل، والحال أن تجربة من هذا القبيل تحقق لهم الوعي بوجود أبعاد متزامنة، وبالنسبة للمنفي فإن عادات الحياة اليومية وأنماط التعبير والنشاط داخل بيئة جديدة، تصطدم لا

محالة بذكريات لها تعلق بالعادات وأنماط الحركة ذاتها في بيئة أخرى، ويفصح الفضاءان القديم والجديد عن واقعيتهما وتأثيرهما، ويتأسسان من ثم في حال طباق». (بوشي، 2020).

وهو ما نجح إدوارد سعيد في تحقيقه من خلال تجربته الاستثنائية في المنفى، أن يعيش طباقيا، ويفكر طباقيا، وهو ما يفصح عنه "تودوروف" من خلال شهادته القيّمة عن شخصية وتفكير سعيد وعن إعجابه بطباقية ذهنيته الفذة، إذ يقول: «بحلول الوقت الذي التقيت به فيه، كان إدوارد سعيد قد وجد طريقا للجمع بين خيطي وجوده المختلفين ودمجهما معا، لقد وجد إدوارد سعيد محلل الأعمال الأدبية الغربية والمنفيُّ الفلسطيني أرضًا مشتركة، حين أخذ على عاتقه دراسة الخطاب الغربي حول الشرق الذي نعرفه باسم الشرق الأدنى ودعاه"الاستشراق"، وكان هذا هو العنوان الذي اتخذه لكتابه الصادر سنة 1978، والذي ترك أثره على المرحلة التي تلت (أي بعد 1967) رحلته الشخصية. منذ ذلك الحين أصبح وجوده وعمله المهني أمرا واحدا، فبعد ترجمة الكتاب إلى ما لا يقل عن ستٍّ وثلاثين لغة، ترك العملُ أثرا عميقا على دراسة العلاقات الثقافية بين البلدان المضيفة وبين مستعمراتها». (تودوروف، 2004).

فلا يملك الغرباء والمنفيون واللاجئون من جماعات الشتات الوافدين من العالم الثالث، بوصفهم نتاجا للتجربة المريعة المرتبطة بالحرب الكولونيالية والتوسع الاقتصادي، سوى الانتظام في محيط جديد، حي يشكل الإبداع بكل ألوانه وأنواعه أشد الأشكال الثقافية مقاومة وممانعة ضد من ينادون بامتلاكهم ثقافة نقية وعظيمة، ويوطنون في نفوس الآخرين الإحساس بأنهم إما عبيد أو دونيّون أو شرقيون غير جديرين بالاهتمام والاعتبار. إن دراسة ما أنجزه المنفيون والمهاجرون واللاجئون من إبداعات وآداب، يجعلنا نرى كيف يدفع النفي والعبور إلى أرض وثقافة جديدة إلى تشكيل معايير ورموز ونماذج، غير تلك التي عملوا وفقا لها في الوطن الأم.

خاتمة

بعد أن استعرضنا في ثنايا هذه الدراسة مفهوم المنفى من منظور فلسطيني عبر الرؤية الفكرية المتبصرة للكاتب المترحّل إدوارد سعيد، ننتهي إلى النتائج التالية:

– لم يفارق الإحساس بالمنفى مخيلة سعيد ولا كتاباته ولا مداخلاته المختلفة في كثير من الجامعات، وأصبح ذلك الشعور مع مرور الوقت تركيبا أكثر تعقيدا وعمقا وأبعد عن مفهوم المنفى البسيط المألوف، ولا شك أن تجربة هذا المفكر في المنفى كفلسطيني وبعيدا عن وطنه، قد أضفت عمقا وثراءً على هذا المدلول المعقد، لا سيما أنه (سعيد) نقل عبر تجربته الخاصة تأثير النفي القسري على الفلسطينيين منذ نكبة 1948، وكيف شكّل هذا ليس فقط أعمال الكتّاب الفلسطينيين، ولكن أيضا تعريف المنفى على أنه تجربة دائمة.

– يشكل المنفى وفق رؤية سعيد ظاهرة معقدة وحالة استثنائية تتخللها مفارقة واضحة؛ فرغم مرارة هذه التجربة وقساوتها فإنها تتحول إلى مكسب، إذ تشكل فرصة سانحة تفتح بعدا جديدا للفكر والإبداع. فبدلا من أن يتحول المنفى عنده إلى مكان لرثاء النفس والانطواء على الذات، انطلق فكره وإبداعه في المنفى، وخلق لنفسه فضاءات من الرؤية المتوازنة للذات والآخر وللمنفى والوطن، لكنه رغم ذلك يرفض تجاهل ما في المنفى من محن وعذابات لا تمحوها لذائذ البيئة الجديدة وبدائلها.

– يعد هاجس الانتماء من أهم المسائل التي تلحّ على المنفي في محنته، فتقلق ضميره وتطرح تساؤلات كبرى حول مستقبله ومصير هويته، ويمكن وصف حيّز المنفى بأنه منطقة اللاانتماء وخارج المكان، أين يضيع المنفي في الحدود الفاصلة بين عالمين مختلفين وربما متناقضين، فيبقى في دائرة اللاانتماء ورفض الانحياز ليجد نفسه عالقا في منطقة رمادية. ويبقى كل ما يحققه المنفي في الغربة من مآثر وإنجازات، لا

يعدو أن يكون جهودا لتجاوز النفي والتغلب على أسى الاغتراب، وتُضْحي الكتابة – كما في حالة سعيد– وطنا بديلا لذاك المفتقد بعد النكبة.

– أشار سعيد إلى فكرة هشاشة الأوطان؛ حيث أن الحياة تنضغط في أوطان جاهزة مسبقة الصنع، والواجب الأخلاقي يقتضي ألا يشعر المرء بالاستقرار في أي مقام، هذه هي المهمة الفكرية التي يتولاها المنفيّ، فلا يمكن أن يكون المنفى موقع امتياز يتيح للفرد الاستقرار وممارسة التأمل الذاتي، وإذا اختار المنفيّ الامتناع عن ممارسة النقد العميق، والاكتفاء بلعق جراحه على هامشالحياة، فإنّ من واجبه أن يطوّر حسّاً معمقاً بالذات، وهي وظيفة المنفيين التي ثمّنها سعيد وشدد عليها، إذ تهدف أساسا إلى إزالة العوائق في الفكر والتجربة، من خلال نجاحهم في عبور الحدود بين الثقافات.

– لقد أبرز سعيد أهمية نشاط المنفيين وإسهامهم في إنعاش الحركة الثقافية الحديثة في الغرب، بفضل ما تميزوا به من رؤية أصيلة وثراء ثقافي، فلا يملك الغرباء والمنفيون واللاجئون من جماعات الشتات الوافدين من العالم الثالث، بوصفهم نتاجا للتجربة المريعة المرتبطة بالحرب الكولونيالية والتوسع الاقتصادي، سوى الانتظام في محيط جديد، حيث يشكل الإبداع بكل ألوانه أشد الأشكال الثقافية مقاومة وممانعة ضد من ينادون بامتلاكهم ثقافة نقية وعظيمة، ويوطنون في نفوس الآخرين الإحساس بأنهم إما عبيد أو دونيون أو شرقيون غير جديرين بالاهتمام والاعتبار.

– لطالما مثّل سعيد نموذجا للمثقف العالمي، ولقد نادى بضرورة الانفتاح على الآخر ودعا إلى تحقيق الهجنة الثقافية أو ما يعرف بالتفكير الطباقي، أي فن التعايش بين الهويات المتنافرة، مقوضا بذلك كل ما هو أصيل ونقي باعتبار أن كل الثقافات الإنسانية واقعة في منطقة بينية، وهي متشابكة ومنفتحة على نظيراتها وتأخذ من بعضها البعض، بفعل عوامل عديدة أبرزها الهجرة والحروب الكولونيالية، فهي حسبه ليست متناقضة أو متصارعة بل متقاربة متداخلة، وهي في حوار دائم يسهم التنوع في الدين واللغة والثقافة في دعمه، بتحقيق التماهي بينالثقافات والقدرة على التفاهم والتفاعل بإيجابية.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المترجمة

1– سعيد إدوارد، 1998، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب.

2– سعيد إدوارد، 2002، الهويات تعددية والمنفى حقل كريم، تر: صبحي حديدي، مجلة الكرمل، رام الله، فلسطين، ع72، 73.

3– سعيد إدوارد، 2007، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، تر: ثائر ديب، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع.

4– سعيد إدوارد، 2000، خارج المكان، تر: فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب.

المصادر باللغة الأجنبية

4– *Said Edward, 1986, After the Last Sky,London,Faber and Faber*

5–*Said Edward, 1984, The World, the Text and the Critic , London, Faber and Faber*

المراجع

1– البازعي سعد، 2010، قلق المعرفة، إشكاليات فكرية وثقافية، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي.

2- غورسيسوكمن موجي، إرتور باشاك، 2011، في انتظار البرابرة في ذكرى إدوارد سعيد، تر: مُحَمَّد أحمد عيتاني، بيروت، دار كريدية للطباعة والنشر والتوزيع.

3- درويش محمود، 2005، كزهر اللوز أو أبعد، بيروت، رياض الريس للنشر والتوزيع.

المجلات

1- صالح فخري،أكتوبر2007، معنى أدب المنفى، مجلة الكلمة، عدد10، نسخة رقمية على الرابط:

http://www.alkalimah.net/Articles/Read/777

مواقع الأنترنت

1- بوشي فريد، 11 أكتوبر 2020، إدوارد سعيد إنسية المنفى، تر: عبد المنعم الشنتوف، مقال منشور على موقع صحيفة القدس العربي على الرابط الإلكتروني:

https://www.alquds.co.uk/%D9%81%D8%B1%D9%8A%D8%AF-%D8%A8%D9%88%D8%B4%D9%8A-%D8%A5%D8%AF%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%AF-%D8%B3%D8%B9%D9%8A%D8%AF-%D8%A5%D9%86%D8%B3%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D9%81%D9%8A

تاريخ الزيارة: 06 جانفي 2021

2- تودوروف تزفيتان، 2004، صورة جزئية لإدوارد سعيد، مجلة سلما غوندي، ع 143، ص3-17،المقالة منشورة بموقع مجلة حكمة، بترجمة عبد الباسط منادي إدريسي على الرابط الإلكتروني:

https://hekmah.org/%D8%A5%D8%AF%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%AF-/%D8%B3%D8%B9%D9%8A%D8%AF

تاريخ الزيارة: 02 جانفي 2021

3- حديدي صبحي، 15 ديسمبر 2020، إدوارد سعيد والمنفى، عن جريدة القدس العربي، منتدى لغو على الرابط الإلكتروني:

https://www.laghoo.com/2011/09/%D8%A7%D8%AF%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%AF-%D8%B3%D8%B9%D9%8A%D8%AF-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D9%81%D9%89-/%D8%B5%D8%A8%D8%AD%D9%8A-%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D9%8A

4- عزيزة طارق، 04 ديسمبر 2019، بعد 41 عاما على "الاستشراق" في ذكرى إدوارد سعيد... المنفي بين الثقافات، موقع قنطرة على الرابط الإلكتروني:

https://ar.qantara.de/content/%D8%A8%D8%B9%D8%AF-41-%D8%B9%D8%A7%D9%85%D8%A7%D9%8B-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B4%D8%B1%D8%A7%D9%82-%D9%81%D9%8A-%D8%B0%D9%83%D8%B1%D9%89-%D8%A5%D8%AF%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%AF-%D8%B3%D8%B9%D9%8A%D8%AF%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D9%81%D9%8A%D9%91-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A7%D8%AA

تاريخ الزيارة: 06جانفي 2020.